بلاغة السكوت في الحديث النبويّ الشريف

كمال عبد الرؤف كامل عبد الغني (*)

المقدمة

الحمد لله فالق الإصباح وجاعل الليل سكنًا، نحمده ونستغفره ونتوب إليه، ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، آتاه الحكمة وفصل الخطاب، ثم أمَّا بعد

فإنَّ السكوت يُعدُّ وسيلة من الوسائل البلاغية المهمة التي استخدمها النبي ﷺ في أداء رسالته وتبليغ ما كُلِّف به من ربه جلَّ وعَلا، فكان ﷺ يلجأ في بعض الأحيان إلى السكوت كوسيلة بلاغية تفوق - في حينها ومقامها وحالها- بلاغة اللفظ.

ولا خلاف في أنَّ اللفظ المنطوق هو المحور الأساسي الذي تدور حوله البلاغة، وهو مناط عملها، وعليه يُعوِّل البلاغيون في بيان فصاحة النَّص وبلاغته .

ولكن قد يتوارى اللفظ ساعة لسبب من الأسباب ويحلّ السكوت محله ليصبح في هذا الموقف أبلغ منه وأنسب .

لذا سنقف في هذا البحث- بإذن الله تعالى- على بلاغة السكوت في أحاديث النبيِّ ﷺ، وذلك من خلال تحليل بعض المواضع التي سكت فيها ﷺ – من خلال الصحيحين- مؤثرًا هذا السكوت على الكلام.

أهمية الموضوع وبواعث اختياره:

- الرغبة الملحة في خدمة السنة النبوية المطهرة .
- منزلة البلاغة النبوية وعلو شأنها، حيث كان النبي ﷺ أبلغ العرب وأفصح من نطق بالضاد .
- قلة الدراسات في البلاغة النبوية مقارنة بالدراسات القرآنية والشعرية .
- كون الموضوع يتطرق لبلاغة السكوت وفيه إفادة للدعاة إلى الله تعالى .

أهداف البحث: يهدف البحث إلى أمور منها:

- الكشف عن بلاغة السكوت النبوي ودوره في توصيل الرسالة .
- التعمق في دراسة البلاغة النبوية وإغناء الدراسات البلاغية منها .

(*) باحث دكتوراه – قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

هذا البحث من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: "أساليب التبليغ النبوي من خلال الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية". وتحت إشراف: أ.د/ بهاء محمد محمد عثمان- كلية الآداب- جامعة سوهاج & د. زياد محمد عبدالعال الجبالي – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

- الوقوف على أثر السياق ودوره في توجيه دلالة السكوت .
- إثبات أنَّ سكوت النبي ﷺ لم يأتِ مجردًا عن العملية التبليغية .
- **الدراسات السابقة**

لم أقف على دراسات تحليلية لبلاغة السكوت في الحديث النبوي الشريف، ولكن هناك بعض الدراسات والأبحاث التي تناولت السكوت من جوانب أخرى مثل:

- بلاغة الصمت من خلال نماذج من الرواية العربية للدكتور علي عبيد
- السكوت ودلالته على الأحكام الشرعية، رمضان علي السيد الشرنباصي، دار الفكر العربي، القاهره، ١٩٨٤ م ،
- بحث بعنوان (بلاغة الصمت في الخطاب الصوفي - قراءة في مذاق البدايات) د. أحمد بوزيان جامعة عبد الرحمن بن خلدون تيارت الجزائر، مجلة الأثر، العدد الثامن عشر / جوان٢٠١٣ م،
- بحث بعنوان (بلاغة الصمت دراسة تداولية) د: وليد سعيد شيمي مجلة كلية دار العلوم جامعة الفيوم ع :٣٦ يونيو ٢٠١٥ م.

خطة البحث

جاء البحث في مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث، وبيانها كالآتي:

- أولًا: التمهيد: عرَّفتُ فيه بالسكوت والفرق بينه وبين الصمت، ثم تحدثت عن منزلة السكوت في الشريعة ومكانته في البلاغة العربية، ثم عرَّجت على دور السياق في تحديد دلالة السكوت، وأخيرًا تطرقت للسكوت في الحديث النبوي.
- ثانيًا المقدمة: ذكرت فيها أسباب اختيار الموضوع، وأهداف البحث والدراسات السابقة، ثم خطة البحث.
- ثالثا: المباحث، وهي كالآتي:
  - المبحث الأول: بعنوان: دلالة السكوت على انتظار الوحي .
  - المبحث الثاني: دلالة السكوت على الرضا والموافقة .
  - المبحث الثالث: دلالة السكوت على الرفض .
  - المبحث الرابع: دلالة السكوت على التشويق .

التمهيد

- **التعريف بالسكوت والفرق بينه وبين الصمت :**

السكوت : ورد في معجم العين "(سكت): سَكتَ عَنه الغضب سكوتًا، وسكن بمعناه، ورجل ساكوتٌ، أي: صموت، وهو ساكِتٌ، إذا رأيته لا ينطق، وساكتٌ طويل السُّكوت"[١]، وفي مقاييس اللغة:" (سَكتَ) السِّينُ وَالكافُ وَالتَّاءُ يَدُلّ عَلى خِلافِ الكلام، تقولُ: سَكتَ يَسْكُتُ سُكُوتًا، وَرَجُلٌ سِكّيتٌ، وَرَمَاهُ بسُكاتةٍ، أيْ بمَا أسْكتهُ، وَسَكتَ الغضَبُ، بمَعْنى سَكنَ، وَالسُّكْتة: مَا أسْكتَّ بهِ الصَّبيَّ"[٢]. وفي المخصّص:" سَكت يَسْكت سَكْتًا وسُكُوتًا وسُكاتًا وأسْكتَ.. وَقيل سَكت تعَمَّد السُّكوتَ وأسْكت أطرقَ من فِكْرة أو داءٍ "[٣] .

ومن خلال ما أورده العلماء في تعريف السكوت نستطيع أن نقول: إنَّ السكوت خلاف النطق، وهو التوقف عن الكلام لفترة زمنية معينة .

- **منزلة السكوت من علم البلاغة :**

يحتل السكوت منزلة كبيرة من البلاغة العربية، فقد أدرك العرب القدامى أهميته ودوره في البيان، وعدُّوه عنصرًا أساسيًا في مفهوم البلاغة، فالمتتبع لتعريفات العلماء للبلاغة والبيان يُدرك تلك العناية التي أولوها إياه .

فقد تعرّض الجاحظ لمعنى الصّمت عند حديثه عن النّصبة[٤]، فقال: "وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق.. فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة

---

١ - معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د/ مهدي المخزومي، دار الهلال، ٣٠٥/٥

٢ - مقاييس اللغة: أحمد بن فارس القزويني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر١٩٧٩، ٨٩/٣

٣ - المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده ، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦، ٢٢٨/١.

٤ - النصبة : هي لسان الحال، وهي الحال والهيئة: وقيل: هي هيئة المتمكن في المكان كقيامه فيه أو قعوده أو بروكه واضطجاعه وما أشبه ذلك. يُنظر: " البيان والتبيين للجاحظ، ٨٦/١" و "بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ،٩٤/١ " .

البرهان... ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتًا، وأشار إليه وإن كان ساكتًا" [١].

فبلاغة الصمت عند الجاحظ لا تختلف عن بلاغة الكلام مادام المُلقي استطاع بسكوته إفهام المتلقي المعنى الذي يريده.

وإذا أمعنَّا النظر في حديث الجاحظ عن البلاغة والبيان نجده يُعوِّل كثيرًا على الإفهام، وجعله الغاية والهدف، بغضِّ النظر عن الوسيلة ما دامت حاملة دلالة المعنى، ويبدو ذلك واضحًا في تعريفه للبيان بأنه: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله، كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[٢].

وقد جعل ابن المقفع السكوت أوَّل الوجوه التي تجري فيها معاني البلاغة فقال: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة"[٣].

أمَّا الجرجاني فقد جعل الصمت أبلغ من الكلام في بعض المواضع، فيقول في باب الحذف: "فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[٤].

ولعل تلك القيمة البلاغية التي أولاها البلاغيون الصمت باعتباره وسيلة للإفهام لا تقلّ عن وسيلة الكلام، بل تفوقه في بعض الحالات، هي التي جعلت الشعراء يتغنون به، ويفضلونه عن الكلام في مواضع التحفظ من الأذى واتقاءِ الشرّ، فقد أورد الجاحظ قول بعض الكلبيين [من الكامل].[٥]

فإذا خطَبْتَ عَلَى الرِّجَال فلا تكُنْ ... خطل الكلام تقولُه مُختَالا
واعْلَمْ بـأنَّ مِـن السُّكُوتِ إبَانـة ... وَمِن التَّكلُّم مَا يَكُونُ خبَالا .

---

١ - البيان والتبيين للجاحظ ٨٦/١
٢ - المصدر نفسه ١١/١
٣ - نفسه ١١٤/١
٤ - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ١٤٦/١.
٥ - يُنظر البيان والتبيين للجاحظ ١٢٨/١

السياق ودوره في توجيه دلالة السكوت [١]

اهتم البلاغيون بالسياق اهتمامًا كبيرًا يتضح ذلك في عبارتهم المشهورة "لكل مقام مقال"[٢]، فالمقام لديهم ركن أساسيٌ له دورٌ كبير في المعنى، ومن شروط البلاغة عندهم أن يكون الكلام مطابقًا مقتضى الحال، فقد يكون النصُّ في داخله صحيحًا فصيحًا، ولكنه لا يكون بليغاً إلا إذا وافق ما يقتضيه حال المتلقين.

و"مصطلح (الحال) يرادف في أغلب استعمالاته لدى البلاغيين مصطلحًا آخر هو (المقام) فكلّ من المصطلحين يقصد به: مجموعة الاعتبارات، والظروف، والملابسات التي تصاحب النشاط اللغوي، ويكون لها تأثيرها (أو ينبغي أن يكون) في ذلك النشاط من خارجه، بحيث لا تحدد دلالة الكلام، أو تتجلى مزاياه إلا في ظلّها، وفي ضوء ارتباطه بها"[٣] .

وإنْ كان كلام البلاغيين السابق ينصبُّ على بلاغة الكلام، فإن الباحث يرى أنَّه ليس ثمة فارق بين اللفظ وغير اللفظ في ذلك، فكل ما يرد داخل النص يأخذ نفس الحكم، فحين نصدر حكمًا ببلاغة النص لا نفرِّق بين ما يحويه في داخله من لفظ أو إشارة أو سكوت أو غير ذلك مما يخدم المعنى ويسهم في توصيله إلى المتلقي.

فإذا كان للسياق دور كبير في بلاغة الكلام، وإذا كان للسكوت بلاغة لا تقل عن بلاغة الكلام، فلابد وأن يكون للسياق دور مهم في بلاغة السكوت، ولا يُمكن تحديد دلالة السكوت خارج السياق، فلنفترض مثلا أننا مررنا بشخص صامت هل نستطيع أن نحدد دلالة صمته دون أن نتحدث معه؟

"لابد للصمت أن يكون داخل موقف خطابي حتي يمكن تأويل دلالته، أما الصمت الذي يكون خارج الموقف الخطابي فلا يمكن تأويل دلالته حيث لا يمتلك دلالته أحد سوى الشخص الصامت ذاته، لذا فإنَّه لتأويل دلالات الصمت لابد من تحليل الموقف الخطابي المصاحب"[٤].

---

١ - للوقوف على أهمية السياق ودوره في بلاغة النص، يُنظر: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث د/ عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، السياق وتوجيه دلالة النص، د/ عيد بلبع، علم المعاني في المورث البلاغي تأصيل وتقييم: د. حسن طبل .

٢ - الإيضاح في علوم البلاغة ٤٣/١ .

٣ - علم المعاني في المورث البلاغي تأصيل وتقييم: د. حسن طبل ، ص ١٢-١٣ .

٤ - يُنظر: بحث (بلاغة الصمت دراسة تداولية) د/ وليد سعيد شيمي، مجلة كلية دار العلوم جامعة الفيوم، ع(٣٦) يونيو٢٠١٥م. ص١٧ .

ويدخل في السياق الملابسات والعلامات التي تصاحب السكوت والتي تبدو على وجه الشخص، والتي تسهم في الوقوف على دلالة هذا السكوت، فالسكوت إذا جاء خارج السياق أصبح كالكلمة المفردة التي تأتي مستقلة خارج التركيب.

السكوت في الحديث النبوي الشريف:

لما كان الحديث النبويَّ صادرًا عن إمام أهل البلاغة وسيدهم ﷺ فلابد وأن يكون كلامه وإشاراته وسكوته وسائر أحواله في أعلى درجات البلاغة، وسيتضح ذلك من خلال تحليل مواضع السكوت في الحديث النبوي بإذن الله تعالى .

ويعد السكوت الوسيلة الأكثر استخدامًا في حياة الرسول ﷺ فنراه يسكت أكثر مما يتكلم، فقد روى الإمام أحمد عن سِمَاكٍ قال: قلتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أكُنتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قالَ: " نَعَمْ، وَكانَ طويلَ الصَّمْتِ، قَلِيلَ الضَّحِكِ، وَكانَ أصْحَابُهُ يَذْكُرُونَ عِنْدَهُ الشِّعْرَ، وَأشْيَاءَ مِنْ أمُورِهِمْ، فيَضْحَكُونَ، وَرُبَّمَا تبَسَّمَ"[١] .

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ " يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ العَادُّ لأحْصَاهُ" [٢] .

ويُعد التقرير –أو الإقرار- وهو نوع من أنواع السنة النبوية- ضربًا من السكوت، ودليلًا واضحًا على أن سكوته - ﷺ - كان وسيلة من وسائل البيان للناس، فكان – ﷺ – يرى أفعال أصحابه فينهاهم عن بعضها، ويسكت عن بعضها الآخر فما سكت عنه أصبح مباحًا؛ فإنه- ﷺ- لا يسكت على مُحرَّمًا، يقول الإمام ابن حزم –رحمه الله تعالى: "وأما إقراره عليه السلام على ما علم وترك إنكاره إياه فإنما هو مُبيح لذلك الشيء فقط وغير موجب له ولا نادب إليه لأن الله عز وجل افترض عليه التبليغ وأخبره أنه يعصمه من الناس وأوجب عليه أن يبين للناس ما نزل إليهم فمن ادَّعى أنه عليه السلام علم مُنكرًا فلم ينكره فقد كفر لأنه جحد أن يكون عليه السلام بلغ كما أمر ووصفه بغير ما وصفه به ربه تعالى"[٣].

وسيتضح لنا بإذن الله تعالى من خلال تحليل مواضع السكوت في أحاديث النبي ﷺ أن سكوته يحمل بلاغة وبيانًا يفوقان بلاغة اللفظ وبيانه في بعض المواضع، وأنه ذو دلالات متعددة تختلف باختلاف السياق.

---

١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل مؤسسة الرسالة ح ٢٠٨١٠، ٤٠٥/٣٤

٢ - صحيح البخاري: كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ ح٣٥٦٧.

٣ - الإحكام في أصول الأحكام ٧/٢

المبحث الأول

دلالة السكوت على انتظار الوحي

إنّ سنة النَّبيّ ﷺ وحي من الله تعالى، يقول جلّ وعلا:" وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى" [1] ، فكان- عليه الصلاة والسلام- كثيراً ما يُسأل عن الشيء الذي لم ينزل عليه فيه وحي، فيسكت أو يقول: "لا أدري" حتى يأتيه بيان ذلك بالوحي، ويريه الله تعالى الجواب والفتوى، حتى إنّ الإمام البخاريّ – رحمه الله تعالى- ترجم لهذا المعنى في صحيحه بقوله: "باب ما كان النَّبيّ يسأل ممّا لم ينزل عليه الوحي فيقول: "لا أدري"، أو لم يجب حتى ينزل عليه الوحي" [2].

وهذا لا يعني أنه لم يكن للنبيّ ﷺ اجتهاد في بعض المسائل التي لا ينزل فيها وحيٌ " فقد ثبت بتتبّع سيرة النَّبيّ ﷺ العطرة وسنته المطّهرة أنَّه قد اجتهد في مسائل ونوازل عديدة لم ينزل عليه فيها وحي "[3].

"وقد علَّم النَّبيّ ﷺ أمته كيفية القياس والاستنباط في مسائل لها أصول ومعاني في كتاب الله ومشروع سنته؛ ليريهم كيف يصنعون فيما عدموا فيه النصوص؛ إذ قد علم أن الله تعالى لابد أن يكمل له الدين.

وأمَّا سكوت النَّبيّ ﷺ حتى ينزل عليه الوحى، فإنما سكت في أشياء معضلة ليست لها أصول في الشريعة فلابد فيها من إطلاع الوحى"[4].

فكان النَّبيّ ﷺ يُسأل عن أشياء كثيرة فلا يُجيب وينتظر الوحي؛ فقد يكون السكوت هو الطريق الأمثل والأبلغ للتعبير عن أمور كثيرة حين تغيب المعلومة، وقد نهى الله تعالى عن القول بلا علم فقال سبحانه:" وَلا تقفُ مَا لَيْسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أولئِكَ كانَ عَنهُ مَسْئُولا "[5]

---

١ - سورة النجم : ٣-٤

٢ - يُنظر صحيح البخاري: ٤٣٠/٣

٣ - يُنظر: السنة النبوية وحي من الله محفوظة كالقرآن الكريم: المقدمة وما بعدها . وقد اختلف العلماء في :هل السنة كلها وحي من الله تعالى، أم أنَّ النَّبيّ ﷺ كان يجتهد، وللاستزادة من هذا الموضوع يُنظر: السنة النبوية وحي من الله محفوظة كالقرآن الكريم للحسين بن محمد آيت سعيد، ص٢٨ وما بعدها ، وسيرة ابن هشام ٦٢٠/١ ، و والسيرة النبويّة في ضوء القرآن والسنّة : محمد محمد أبو شهبة ١٥٧/٢

٤ - شرح ابن بطال ٣٥٦/١٠

٥ - سورة الإسراء ٣٦

قال قتادة:" لا تقل رأيتُ ولم تر وسمعتُ ولم تسمع، فإن الله تبارك وتعالى سائلك عن ذلك كله" [١].

فالله عز وجل ينهى عن الكلام بدون علم فكيف نعبر عن عدم العلم لابد أن يكون السكوت في مثل هذه الحالة هو خير معبِّر عن ذلك، فكان رسول الله ﷺ حينما يتعرض لمسألة لا يعلم إجابتها ينتظر الإجابة من السماء، ومن الأمثلة على ذلك مما جاء في الصحيحين من السكوت انتظارًا للوحي ما رُوي عن عبد الله بن مسعود، أنَّه قال: بَيْنَمَا أنا أَمْشِي مَعَ النَّبيّ ﷺ فِي حَرْثٍ، وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَسِيبٍ، إذ مَرَّ بنفرٍ مِنَ اليهودِ، فقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فقالوا: مَا رَابَكُمْ إليه[٢]، لا يَسْتقبلُكُمْ بشَيْءٍ تكْرَهُونَهُ، فقالوا: سَلُوهُ، فقامَ إليهِ بَعْضُهُمْ فسَألَهُ عَنِ الرُّوحِ، قالَ: فأَسْكتَ النَّبيّ ﷺ، فلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا، فعَلِمْتُ أنَّهُ يُوحَى إليه، قالَ: فقُمْتُ مَكانِي، فلَمَّا نزَلَ الوَحْيُ قالَ: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا")[الإسراء: ٨٥] "[٣] .

نلمح من هذا السكوت كأنه دعاء لله تعالى، ليمدَّ النَّبيّ ﷺ بما يستطيع أن يَردَّ به كيد اليهود في نحورهم، فما كان سؤالهم هذا إلا رغبة في تكذيب الرسول صلوات الله وسلامه عليه وإبعاد الناس عنه، فالسؤال هنا عن أمر من الأمور الغيبية التي اختصَّ الله جلّ وعَلا نفسه بعلمها " فمن العلم أشياء لم يُطلع الله عليها نبيًّا، ولا غيره، أراد الله تعالى أن يختبر بها خلقه فيوقفهم على العجز عن علم ما لا يُدركون حتى يضطرهم إلى رد العلم إليه، ألا تسمع قوله تعالى: "وَلا يُحِيطونَ بشَيْءٍ مِّنْ عِلمِهِ إلاَّ بمَا شَاء" [البقرة: ٢٥٥] ، فعلم الروح مما لم يشأ تعالى أن يُطلعَ عليه أحد من خلقه"[٤].

فبما عساه أن يُجيب ﷺ وهم يسألونه عن أمور غيبية ؟ لابد وأن يكون السكوت هنا هو الإجابة؛ فلو استبدل- ﷺ- هذا السكوت بقوله: لا أعلم، أو: انتظروا

١ - يُنظر تفسير الطبري ٤٤٦/١٧- و تفسير القرطبي ٢٥٧/١٠

٢ - رابكم إليه :أي ما دعاكم إلى سؤاله أو ما شككم فيه حتى احتجتم إلى سؤاله أو ما دعاكم إلى سؤال تخشون سوء عقباه (ينظر شرح النووي على صحيح مسلم١٣٧/١٧)

٣ - ينظر صحيح البخاري في كتاب العلم باب وما.... ٤١/١ ح ١٢٥ و أطرافه في(٤٧٢١ ، ٧٢٩٧، ٧٤٥٦، ٧٤٦٢)– وصحيح مسلم ٢ح ٢٧٩٤ كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النَّبيّ عن الروح، ص٧٤١ واللفظ لمسلم

٤ - شرح ابن بطال ٢٠٤/١

حتى أخبركم، لما حملت هذه الدلالات التي حملها السكوت، فلابد للفظ هنا أن يتوارى لبعض الوقت حتى تأتي الإجابة من السماء ليُعلم أنه - ﷺ - لا ينطق عن الهوى.

وفي هذا السكوت دلالة على معرفة النَّبيّ ﷺ بمقصد اليهود فهم لم يسألوه عن الروح لعدم علمهم بها؛ فهم يعلمون تمام العلم أن الروح من أمر الله وإنما كانوا يريدون منه أن يقول فيها بشيء من عنده، حتى قال بعضهم :"مَا رَابَكُمْ إليه، لا يَسْتقبلكُمْ بشَيْءٍ تكْرَهُونهُ" .

ويرى الباحث أن سكوته هذا ثم إجابته هذه - بعد أن تلقاها عن ربِّه تعالى- هو ذات الشيء الذي يكرهونه، فقد تمنوا أن يُجيب عن هذه المسألة خاصة؛ "لأنه كان عندهم أنه إن أجاب بتفسير الروح فليس بنبي"[1] .

فالمسألة إذن مسألة اختبار وليست مسألة طلب علم ومعرفة، فقد روى عطاء عن ابن عباس "أن اليهود قالت لقريش: سلوا محمداً عن ثلاث، فإن أخبركم عن اثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي سلوه عن فِتيةٍ فقدوا، وسلوه عن ذي القرنين، وسلوه عن الرَّوح. فسألوه عنها، ففسَّر لهم أمر الفتية في الكهف، وفسَّر لهم قصة ذي القرنين، وأمسك عن قصة الروح، فنزلت هذه الآية"[2].

فسكوت النَّبيّ ﷺ في هذا الموقف حمل كثيرًا من الدلالات البلاغية، ومنها:

-أنه ﷺ بشر يوحى إليه ولا يتحدث من عند نفسه ويؤكد ذلك إجابته بعد نزول الوحي عليه.

-أن الروح غيب من غيب الله لا يدركه أحد سواه حتى وإن كان نبيًّا مرسلا .

-"أن علم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود، والإنسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة، إنما وهب منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه، في حدود علمه القليل"[3] .

-أنه في سكوته هذا يتضرع إلى الله تعالى حتى يُنزل عليه من فيض علمه ما يرد به كيد اليهود، فكان السكوت هنا عين البلاغة، فما هي الألفاظ التي كانت ستؤدي

---

١ - شرح النووي ١٣٤/٩

٢ - انظر زاد المسير ٥٠/٣ .

٣ - في ظلال القرآن: سيد قطب ٢٢٤٩/٤

هذه المعاني وتحمل كلَّ هذه الدلالات ؟ لا أظنُّ أن هناك لفظًا يستطيع أن يؤديَ ذلك وإلا لما تركه النَّبيّ وهو - إمام أهل البلاغة والبيان- ليؤثر السكوت عليه.

ومن ذلك أيضًا: ما رواه أبو سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ: "أَنَّ النَّبيّ ﷺ جَلَسَ ذاتَ يَوْم عَلَى المِنبَرِ وَجَلَسْنا حَوْلَهُ، فقالَ: "إنِّي مِمَّا أَخافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي، مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيَا وَزِينتِهَا" فقالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَيَأتِي الخَيْرُ بالشَّرِّ؟ فسَكتَ النَّبيّ ﷺ، فقِيلَ لَهُ: مَا شَأنُكَ؟ تُكلِّمُ النَّبيّ ﷺ وَلا يُكلِّمُكَ؟ فرَأيْنا أنَّهُ يُنزَلُ عَلَيْهِ؟ قالَ: فمَسَحَ عَنْهُ الرَّحَضَاءَ، فقالَ: "أيْنَ السَّائِلُ؟" وَكأنَّهُ حَمِدَهُ، فقالَ: "إنَّهُ لا يَأتِي الخَيْرُ بالشَّرِّ، وَإنَّ مِمَّا يُنبِتُ الرَّبيعُ يَقتُلُ أوْ يُلِمّ، إلَّا آكِلَةَ الخَضْرَاءِ، أكلَتْ حَتَّى إذا امْتَدَّتْ خاصِرَتاهَا اسْتقبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فثَلطَتْ وَبَالَتْ، وَرَتَعَتْ، وَإنَّ هَذا المَالَ خضِرَةٌ حُلوَةٌ، فنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ مَا أعْطَى مِنهُ المِسْكِينَ وَاليَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيل - أوْ كمَا قالَ النَّبيّ ﷺ - وَإنَّهُ مَنْ يَأخُذْهُ بغَيْرِ حَقِهِ، كالَّذِي يَأكُلُ وَلا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ"[١].

يجلس النَّبيّ ﷺ بين أصحابه ليُخبرهم أنه يخاف عليهم من إقبال الدنيا بالمال وما يُخرَج لهم من بركات الأرض، وهذا في عُرف الناس خيرٌ كلّ يتمناها فكيف لرسول الله ﷺ أن يُحذرهم منه ؟!

لذلك تعجب السائل من خوف النَّبيّ ﷺ مِن هذا الخير لأمته، فقال مستفهمًا: أوَ يأتي الخير بالشر يا رسول الله ؟

فسكت النَّبيّ ﷺ مما جعل الصحابة يلومون السائل ظنًا منهم أنَّ السؤال فيه حرج لرسول الله ﷺ ففي رواية للبخاري :" فقِيلَ لَهُ: مَا شَأنُكَ؟ تُكلِّمُ النَّبيّ ﷺ وَلا يُكلِّمُكَ؟[٢]

ولم يكن سكوت النَّبيّ ﷺ غضبًا من سؤال السائل، يقول ابن حجر:" والحاصل أنهم لاموه أولا حيث رأوا سكوت النَّبيّ ﷺ فظنوا أنه أغضبه ثم حمدوه آخرا لما رأوا مسألته سببًا لاستفادة ما قاله النَّبيّ ﷺ وأما قوله: وكأنه حمده فأخذوه من قرينة الحال قوله لا يأتي الخير إلا بالخير)[٣].

---

١ - صحيح البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة على اليتامى، ح: ١٤٦٥، ص٣٢٣ و(ح ٦٤٢٧ ص٢٣١/٣ كتاب الرقاق باب ما يُحذر من زهرة الدنيا) واللفظ له، وفي صحيح مسلم ١٠٥٢ كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا ص٢٦٣. ومن المفردات : (الربيع) النهر الصغير. (يلم) يقرب من القتل. (آكلة الخضرة) التي تأكل الخضر وتقتصد في الأكل. (فثلطت) ألقت روثها رقيقا مائعا. (فتح الباري١١/٢٤٧)

٢ - صحيح البخاري ١٤٦٥ -٣٢٣/١ كتاب الزكاة باب الصدقة على اليتامى.

٣ - فتح الباري١١/٢٤٦

ويُعقب الإمام النووي على هذا بقوله:" إن هذا هو السائل الممدوح الحاذق الفطن ولهذا قال وكأنه حمده"[١]

فلم يكن سكوت النَّبيّ ﷺ غضبًا من السائل، فلماذا إذن سكت؟ وما البلاغة في سكوته؟ لابد أنه يحمل إلينا بيانا وبلاغة يفوقان بيان اللفظ المنطوق- في هذا الموقف- وبلاغته.

إن الأمر الذي يتحدث عنه النَّبيّ ﷺ أمر يبدو في ظاهره أنه يُخالف ما تعاهد عليه المستمعون من أنَّ المال وبركات الأرض خير للناس والنَّبيّ ﷺ يقول لهم: إن هذا الخير الذي يبسط للناس مصدر قلق وخوف عليهم مما استدعى سؤال السائل: وهل يأتي الخير بالشر؟

فسكت النَّبيّ ﷺ عن الإجابة "؛ لأنها معادلة صعبة تحتاج إلى وحي من الله في ميزان دقيق، يكشف الغموض في هذا التناقض الظاهري، ليكون مقياسًا إلهيًا، وميزانًا عادلا في التعامل مع الخير وزينة الحياة الدنيا، ليأتي بالخير والثواب العظيم حتى لا يكون وبالًا على صاحبه يجلب له الشرَّ والعقاب" [٢].

فالنَّبيّ ﷺ لم يُجب السائل لخطورة الأمر بل رفع السؤال إلى علام الغيوب جلّ وعلا فجاءته الإجابة عن طريق الوحي ليخبره بأن الخير لا يأتي إلا بالخير لكن الشر يكمن في التعامل مع هذا الخير، فالمال خير كبير لكن حين يُستخدم في غير مرضاة الله يصبح شرًا ووبالًا على صاحبه .

ومن خلال ما ذكرنا يمكن أن نقف على أهم الدلالات المستنبطة من سكوت النَّبيّ ﷺ في هذا الموقف والتي منها :

أن النَّبيّ ﷺ لم يكن يتعجل في الإجابة بل كان ينتظر الوحي في الأمور التي تخفي عليه، يقول بدر الدين العيني:" فسكت ﷺ وَسَلَمَ يعني انتظارا للوحي"[٣]

- ويجوز أن يكون سكوته - ﷺ - ليأتي بالعبارة الوجيزة الجامعة المفهمة، "ويُستفاد منه ترك العجلة في الجواب إذا كان يحتاج إلى التأمل"[٤]

---

١ - شرح النووي١٦٢/٤ .

٢ - التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، علي علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث١٥٠/١ .

٣ - عمدة القاري ٣٩/٩ .

٤ - فتح الباري ٢٤٨/١١ .

- "وفيه إشارة إلى أن للعالم إذا سُئل أن يمطل بالجواب حتى يتيقن أو يطلع المسألة عند من فوقه من العلماء، كما فعل النَّبيّ ﷺ في سكوته حتى استطلعها من قِبَل الوحى[١].

- فيه أسَّ مهم من الأسس التربوية التي يُنادي بها علماء التربية وهو "أن يعمد المجيب إلى التمهل والتريث لبعض الوقت قبل أن يُعطي جوابًا على سؤال السائل، يتيح لنفسه بذلك وقتًا للتفكير والتدبر، ويعطي للسائل وقتا لتعديل سؤاله أو تغييره[٢].

- كما أنَّه في سكوته ﷺ إثارة وتشويق، فالصحابة جميعًا يترقبون إجابة النَّبيّ ﷺ وخاصة أنهم كانوا يظنون أن الرجل قد أغضبه بسؤاله، فلما جاءت الإجابة بعد هذا الترقب والتشويق أثلجت صدورهم و جعلتهم يحمدون السائل.

وربما سأل سائل لماذا أفاد سكوت النَّبيّ ﷺ في هذا الحديث الرضا وحمد السائل بخلاف حديث السؤال عن الساعة مع أنَّ في كلا الموقفين مقاطعة لحديثه ﷺ ؟

يرى الباحث أنَّ ذلك دليلٌ واضح على بلاغة النَّبيّ ﷺ وبيانه حتى في سكوته، ففي الموقفين مراعاة لمقتضى حال السامعين ومراعاة للمقام نفسه: فالسائل في حديث الساعة رجل من الأعراب جاء ليقاطع النَّبيّ وهو يُخاطب غيره، أما السائل هنا فهو أحد المستمعين كما أنه سأل عن نفس الموضوع المتحدَّث فيه، وسؤال الساعة كان عن أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، والإجابة عنه لا تفيد كثيرًا، أما هذا السائل فإنه يسأل عن أمر من أمور الدين ولذلك حمده النَّبيّ ﷺ.

ومن دلالة السكوت على انتظار الوحي: ما روي عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أبيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفارِهِ، وَعُمَرُ بْنُ الخطّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الخطّابِ عَنْ شَيْءٍ فلَمْ يُجِبْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ فلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فلَمْ يُجِبْهُ، وَقالَ عُمَرُ بْنُ الخطّابِ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا عُمَرُ، نَزَرْتَ[٣] رَسُولَ اللهِ ﷺ ثلاثَ مَرَّاتٍ كُلَّ ذلِكَ لا يُجِيبُكَ، قالَ عُمَرُ: فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي ثُمَّ تقدَّمْتُ أَمَامَ المُسْلِمِينَ، وَخَشِيتُ أَنْ

١ - شرح ابن بطال ٤٩٠/٣ .

٢ - الدلالات التربوية لأسلوب السؤال والجواب في السنة النبوية خليل محمد دخان ، ص٤١

٣- يُقال: نزرت الرجل إذا كددته فِي السُّؤَال وَطلبت مَا عِنْده جَمِيعًا، من النزر وَهُوَ القَلِيل كأنك أردْت أخذ نزره ..ثمَّ اسْتعْمل فِي كل إلحاح وإحفاء يُرِيد ألححت عَلَيْهِ مرَارًا يُنظر: الفائق في غريب الحديث والأثر: ٤٢٠/٣ حرف النون .

يَنْزِلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فمَا نشِبْتُ أنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بي، قالَ: فقلتُ: لقَدْ خشِيتُ أنْ يَكُونَ نزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ، وَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فقالَ:" لقَدْ أنزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ، لَهِيَ أحَبُّ إلَيَّ مِمَّا طلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ" ثُمَّ قرَأَ: (إنَّا فتحْنا لكَ فتْحًا مُبينًا)".[1]

نلاحظ في هذا الحديث أن عمر بن الخطاب ﷺ يسأل النَّبيّ ﷺ ثلاث مرات- لم يَرد على حدِّ علمي ما هو السؤال الذي سأله سيدنا عمر- والنَّبيّ ﷺ صامت لا يُجيبه، حتى ظنَّ سيدنا عمر أنَّ رسول الله ﷺ كره سؤاله، ولم يكن الأمر كذلك، وإنما كان سكوته – ﷺ – انشغالا بالوحي، فلمَّا ذهب الوحي نادى رسول الله ﷺ عمر ﷺ وأخبره بما أنزل عليه من سورة الفتح .

ونلمح في هذا السكوت أن الإجابة قد تكون بالسكوت، ولا يُشترط فيها الكلام، فالسكوت قد يكون أبلغ من الكلام في بعض الحالات والسياق هو الأساس الذي يُعوَّل عليه في ذلك، يقول الحافظ ابن حجر:" قوله: "فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه "يُستفاد منه أنه ليس لكل كلام جواب بل السكوت قد يكون جوابًا لبعض الكلام"[2].

كما أنَّ في السكوت تأديبًا ليس في الإجابة وخاصة إذا ألحَّ السائل في سؤاله، ففي قول سيدنا عمر: "نزرت رسول الله ﷺ، يعني ألححت عليه في المسألة إلحاحًا أدّبك بسكوته عن جوابك"[3]

وفيه أنه يجب على المتعلم ترك الإلحاح في السؤال وخاصة إذا رأى المعلم مُنشغلا بأمر آخر، أو ممتنعًا عن إجابته لأي سبب كان، وأنه "يجوز للمعلم أن يمتنع عن الإجابة وأن يسكت عما لا يريد أن يُجيب"[4].

---

١ - صحيح البخاري كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية، ٣٢٢/٢ ح:٤١٧٧ وفي كتاب تفسير القرآن، باب :إنَّا فتحنا لك فتحًا مبينًا، ٤٩٥/٢، ح ٤٨٣٣ ، والآية هي الأولى من سورة الفتح.

٢ - فتح الباري ٥٣٨/٨ ويُنظر عمد القاري ١٧٦/١٩.

٣ - يُنظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ٣٩٥/٢.

٤- يُنظر: شرح الزرقاني على الموطأ (هامش ١٨/٢)

ويرى الباحث أننا نستطيع أن نستخلص من سكوت النَّبيّ ﷺ في هذا الحديث – وفي غيره - قواعد تربوية وتعليمية يجب أن تدرس في كليات التربية، وخاصة حول العلاقة بين المعلم والمتعلم فنحن في أمسِّ الحاجة إليها في يومنا هذا.

فنستنبط من هذا الحديث رحمة المعلم وعدم زجره المتعلم، بل يبحث عنه ويجيبه، وأن يُراعي المتعلم حال معلمه ولا يُلِح عليه في السؤال، ويجب عليه أن ينتظر الإجابة، وأن يختار التوقيت المناسب للسؤال، وأن المعلم لا يُجبَر على الإجابة ما دام منشغلًا بأمر آخر، ولا يشتت نفسه بين أمرين فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.[١]

ويتوقع الباحث – من خلال التوقيت الذي قيل فيه الحديث - أن سبب سكوت النَّبيّ ﷺ هنا أنه وجد في نفسه شيئًا من سيدنا عمر ﷺ ولم يُرد أن يناقشه؛ لما حدث منه قبيل ذلك من مراجعته له في صلح الحديبية لما رأى أن شروط الصلح يبدو في ظاهرها إجحافا وظلمًا للمسلمين [٢].

١ - للوقوف على أهم أصول التربية في السنة النبوية، يُنظر: التربية في السنة النبوية لأبي لبابة حسين، صـ٦٦ وما بعدها.

٢ - يُنظر: سيرة النَّبيّ - ﷺ-: ابن هشام، ت: مصطفي السقا ٣١٧/٢.

المبحث الثاني:
دلالة السكوت على الموافقة والرضا

قد يكون السكوت في بعض الحالات دليلًا على الرضا والموافقة على ما يُقال وإقراره، وهو أمر معروف في الشرع وفي عُرف الناس، فقد جعل النبي ﷺ سكوت البكر دليلًا على موافقتها على الزواج، فقد روي الإمام البخاري عن عائشة، (أَنَّهَا قالتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ البِكْرَ تسْتحِي؟ قالَ: "رِضَاهَا صَمْتُهَا" [١]، وفي رواية ابن ماجه: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: "الثَّيِّبُ تُعْرِبُ عَنْ نفْسِهَا، وَالبِكْرُ رِضَاهَا صَمْتُهَا"[٢].

فمن المعلوم أن البكر تستحي من الإجابة بالموافقة على الزواج، فجُعل الصمت دليلًا عليه، وفي ذلك مراعاة لحالها، فإنها إن كانت ثَيِّبًا لزم عليها النطق بالموافقة، قال ابن حبيب: "وقد ساوى رسول الله ﷺ بين البكر والثيب في مشاورتهما في أنفسهما، ولم يفرِّق بينهما إلا في الجواب بالرضا، فإنه جعل جواب البكر بالرضا في صماتها لاستحيائها... ولم يلزم رسول الله ﷺ الثيب الرضا بالصمات حتى تتكلم بالرضا لمفارقتها في الحياء حال البكر لما تقدم من نكاحها". [٣]

ولكن قد يُئوِّل البعض هذا الصمت على أنه رفض وليس قبولًا، لذا يجب أن تُراعي في ذلك القرائن، فقد ذكر بعض الفقهاء " أنه يجب أن يُقال لها ثلاثا: إن رضيتِ فاسكتي وإن كرهتِ فانطقي، وقال بعضهم يُطال المقام عندها لئلا تخجل فيمنعها ذلك من المسارعة " [٤].

ويرى الباحث أن من القرائن الهامة التي يجب أن تراعى في ذلك علامات الرضا أو السخط التي تبدو على الوجه وما يصاحبها من تبسم أو بكاء أو إعراض و غير ذلك من هذه القرائن .

ومما جاء في الصحيحين من السكوت الدال على الرضا:

---

١ - صحيح البخاري: كتاب النكاح، باب: باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها – حديث (٥١٣٧) ٥٧٢/٢

٢ - يُنظر: سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب: استئمار البكر والثيب،٦٠٢/١ ح١٨٧٢

٣ - يُنظر : شرح ابن بطال ٢٥٣/٧

٤ - شرح النووي ١٩٣/٩

عن أنس بن مالك، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خرَجَ حِينَ زَاغتِ الشَّمْسُ، فصَلَى الظُّهْرَ، فقامَ عَلَى المِنبَرِ، فذكرَ السَّاعَة، فذكرَ أنَّ فِيهَا أمُورًا عِظامًا، ثمَّ قالَ: "مَنْ أحَبَّ أنْ يَسْألَ عَنْ شَيْءٍ فليَسْألْ، فلا تسْألونِي عَنْ شَيْءٍ إلَّا أخبَرْتُكُمْ، مَا دُمْتُ فِي مَقامِي هَذا "فأكْثرَ النَّاسُ فِي البُكاءِ، وَأكْثرَ أنْ يَقولَ:" سَلونِي" ، فقامَ عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذافة السَّهْمِيَّ، فقالَ: مَنْ أبي؟ قالَ:" أبُوكَ حُذافة" ثمَّ أكْثرَ أنْ يَقولَ: "سَلونِي" فبَرَكَ عُمَرُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فقالَ: رَضِينا باللهِ رَبًّا، وَبالإسْلام دِينًا، وَبمُحَمَّدٍ نبيًّا، فسَكتَ، ثمَّ قالَ: "عُرِضَتْ عَليَّ الجَنَّة وَالنَّارُ آنِفًا فِي عُرْضِ هَذا الحَائِطِ، فلَمْ أرَ كالخَيْرِ وَالشَّرِّ"[١].

في هذا الحديث يأمر النَّبيّ ﷺ أصحابه أن يسألوه وقد أكثر من قوله :"سلوني" وظاهر الحديث أن تكرار هذا الأمر من رسول الله ﷺ إنما كان لغضبٍ لحِق به من الأسئلة الموجهة إليه، ففي رواية أبي موسى الأشعري ﷺ قال :"سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عَنْ أشْيَاءَ كرِهَهَا، فلَمَّا أكْثرَ عَلَيْهِ غضِبَ..."[٢]

وقد كره النَّبيّ ﷺ هذه المسائل لأسباب منها :

-"عدم فائدتها دينياً ودنيوياً، بل قد تنجم عنها مضرة للسائل أو لغيره[٣]، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه أنَّ رسول الله ﷺ قال:" إنَّ أعْظَمَ المُسْلِمِينَ فِي المُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَألَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ عَلَى المُسْلِمِينَ، فحُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أجْل مَسْألَتِهِ"[٤].

قال الخطابيَّ: هذا فيمن سأل تكلفًا وتعنتًا فيما لا حاجة له إليه، لا فيمن سأل لضرورة وقعت له"[٥]

"وغضب النَّبيّ ﷺ لكونه شارعًا بُعث لتعليم الشرائع، فجعل بعضهم يسألونه عن المغيبات، وكذلك بعض المنافقين سألوه سخرية فقط"[١].

---

١ - صحيح البخاري ح٥٤٠ كتاب: مواقيت الصلاة ١/ و١٢٨ وأطرافه في ح ٩٣ باب من برك على ركبتيه عند الإمام ٣٤/١ومسلم ح٢٣٥٩ كتاب الفضائل ، باب: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ص٦٣٤.

٢ - البخاري ح ٩٢ – باب الغضب في الموعظة ٣٤/١".

٣ - منار القاري ١٩٢/١

٤ - صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، ح ٢٣٥٨ صـ٦٣٤.

٥ (الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج للسيوطي٣٤٢/١)

فعن ابن عباس، رضي الله عنهما قال:" كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً فيقول الرجل: مَنْ أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية " إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُم عَذَابًا مُهِينًا"[٢].

لذا غضب رسول الله ﷺ من هذه الأسئلة، ولكنَّه مع غضبه كان يُجيبهم، يقول القاضي:" وكان اختياره- ﷺ- ترك تلك المسائل لكن وافقهم في جوابها لأنه لا يمكن رد السؤال ولما رآه من حرصهم عليها"[٣]

وقد تنبه سيدنا عمر ﷺ إلى هذا الأمر لمَّا رأى دلالات الغضب على وجه النَّبيّ ﷺ فأراد أن يتلافي ذلك "وفي هذا الحديث فضل عمر بن الخطاب وفهمه، ومكانه من الحماية عن الدين والذب عن رسول الله ﷺ إذ قال: "رَضِينا باللهِ رَبًّا، وَبالإِسْلام دِينًا، وَبمُحَمَّدٍ نبيًّا"، ومنع تعنيته والإلحاح عليه؛ لأن الله عزَّ وجلّ قد أمر بتعزيزه وتوقيره وألا يُرفع الصوت فوق صوته، واستعاذ بالله من شر الفتن" [٤]

" قال القاضي وأما بروك عمر ﷺ وقوله فإنما فعله أدبًا وإكرامًا لرسول الله ﷺ وشفقة على المسلمين لئلا يؤذوا النَّبيّ ﷺ فيهلكوا، ومعنى كلامه: رضينا بما عندنا من كتاب الله تعالى وسنة نبينا محمد ﷺ واكتفينا به عن السؤال ففيه أبلغ كفاية"[٥].

وكان لفهم عمر – المعتاد- أثر عظيم على النَّبيّ ﷺ فقد جعله يهدأ ويرضى بعد كل هذا الغضب.

ولكن كيف عبَّر النَّبيّ ﷺ عن رضاه ؟ تُرى ما أبلغ لفظ يمكن أن يُقال في هذا الموقف؟

الناس يغطون كغطيط المِرْجَل، والنَّبيّ ﷺ غضبان وسيدنا عمر ﷺ يريد أن يُهدئه، فأي شيء يمكن أن يُعبر به هنا حتى تصل حالة الرضا إلى الجميع؟

---

١ فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي ٢٧٦/١

٢ عمدة القاري شرح صحيح البخاري١١٥/٢)

٣ - شرح النووي ١١٤/٨.

٤ - شرح ابن بطال ٤٣/١٠ كتاب الفتن .

٥ - شرح النووي ١١٤/٨

قلّب بين صفحات المعاجم وفي عقول البلغاء واسأل أهل العلم وذوي الخبرة، لا صوت يعلو فوق صوت السكوت؛ به يهدأ الجميع ويُعلم الرضا ويُحَدُّ من الأسئلة المتتابعة، فحين يكون الصوت مرتفعًا ثم ينقطع فجأة فلابد للسامع هنا أن ينتبه ماذا حدث ؟ ولِما هذا السكوت بعد هذه الحدَّة ؟ لابد أن أمرًا جلل وراء ذلك.

إنه سكوت الرضا بعد الغضب، فحين يبتدأ المقام بالرفض، ثم يتبع ذلك بالسكوت فيفهم من السكوت التالي للرفض أنه موافقة ورضا، ففي مرسل السدي عند الطبري في نحو هذه القصة فقام إليه عمر فقبل رجله وقال: رضينا بالله ربا وبالقرآن إماما فاعف عفا الله عنك فلم يزل به حتى رضي"[١].

إن السكوت هنا قد حمل من الدلالات ومن البلاغة ما لم يحمله الكلام، فالمقام مشحون بالخوف والحزن، ولابد للفظ أن يُرجأ إلى وقت آخر؛ ليترك مجالا للسكوت؛ ليعلو صوته ويعبر عمَّا لا يستطيع اللفظ أن يُعبِّر عنه ليكون في هذا الموقف أبلغ وأبين من الكلام المنطوق.

فلو قال النَّبيّ ﷺ: رضيتُ أو هدأتُ هل كانت ستصل إلى الجميع؟ وهل كانت ستؤثر في الجميع؟ لا أظن أن اللفظ هنا سيكون في بلاغة السكوت لذا آثره النَّبيّ ﷺ وفضَّله على كل ما أوتي من بلاغة الكلم .

١ - فتح الباري ٢٧٠/١٣.

المبحث الثالث
دلالة السكوت على الرفض

قد يلجأ الإنسان في بعض أموره إلى السكوت كدليل على الرفض، وخاصة إذا كان هذا الأمر يحمل في طيَّاته شيئًا يستدعي الحياء، وقد عُرف عن النبي ﷺ أنه كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، فنراه – ﷺ – يسكت في بعض المواقف، رفضًا منه للموقف، أو لأنه يستحي من النطق بلفظ دالٍّ على الرفض حفاظا على مشاعر الآخر.

ومما جاء في الصحيحين من ذلك:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فقالتْ: يَا رَسُولَ اللهِ جِئْتُ لِأَهَبَ لَكَ نَفْسِي، فنظرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَهُ، فلَمَّا رَأَتِ المَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ، فقامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا...." الحديث[1].

ومن دلالة السكوت على الرفض ما جاء في هذا الحديث في قول الراوي:" ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَه" "وهو بمعنى قوله: فصمت"[2].

فلِمَ آثر النَّبيّ ﷺ السكوت هنا على الكلام ؟

يجدر بنا - قبل الإجابة عن هذا السؤال- أن نوضِّح الحالة التي كان عليها النَّبيّ ﷺ وأصحابه وحال المرأة التي وهبت نفسها له.

يجلس النَّبيّ ﷺ بين أصحابه، فتجيء إليه امرأة واهبة نفسها له ليتزوجها، وهو مُخيَّر في ذلك لقول الله تعالى:" وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيّ أَنْ يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...الآية" [الأحزاب:٥٠]

.فينظر النَّبيّ ﷺ إليها ثم يطأطأ رأسه ويسكت، فماذا أفاد هذا السكوت ؟

أراد النَّبيّ ﷺ بسكوته هنا أن يُفهم المرأة أنه لم يردها، وأنه ليس لديه الرغبة في الزواج منها وقد أصرَّ النَّبيّ ﷺ على هذا السكوت، رغم أن المرأة لم تيأس وجلست منتظرة رده – ﷺ - فالسكوت هنا أبلغ من الكلام لعدة أسباب:

- ما عُرف عنه- ﷺ – من شدة الحياء فاستحيا من مواجهتها بالرفض.

١- صحيح البخاري ح٥٠٣٠ كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب ٥٤٩/٢ و يُنظر: كتاب النكاح ، باب تزويج المعسر ٥٦٠/٢، ح ٥٠٨٧، وفي صحيح مسلم ح ١٤٢٥ كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد وغير ذلك، ص٣٩٦.

٢ - الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم٣٠٥/١٥.

- أن رسول الله ﷺ كان يتزوج النساء لأغراض وغايات دينية، ولعله لم يرَ غاية من زواجه هذه المرأة .

- أن في سكوته- ﷺ- هذا مراعاة لمشاعر المرأة حتى لا يتسبب في إحراجها أمام جمع من الصحابة .

- في سكوته- ﷺ- دلالة على كمال خلقه ولطفه ﷺ ، "إذ لم يردَّها حين لم يرغب فيها، بل سكت حتى طلبها منه بعض أصحابه"[١].

- أن التصريح بالرفض قد يعيب المرأة فلا يتقدم أحد لخطبتها، لكن الصمت حفظ لها مكانتها حتى قام أحد الصحابة خاطبًا لها وقد كان.

- ويؤخذ من هذا السكوت أنه "يُستحب لمن طلبت منه حاجة لا يمكنه قضاؤها أن يسكت سكوتًا يفهم السائل منه ذلك ولا يخجله بالمنع إلا إذا لم يحصل الفهم إلا بصريح المنع فيصرِّح" [٢].

لذا كان السكوت في هذا الموقف أبلغ من الكلام حيث حفظ كرامة المرأة وكان سببًا في تزويجها من أحد الصحابة .

ومن دلالة السكوت على الرفض ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر بن الخطاب ﷺ في حديث الإيلاء الطويل:"...فدَخلتُ عَلى حَفصَة وَهِيَ تبْكِي، فقلتُ: أطلَقكُنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فقالتْ: لا أدْرِي، هَا هُوَ ذا مُعْتزِلٌ فِي هَذِهِ المَشْرُبَةِ، فأتيْتُ غلامًا لهُ أسْوَدَ، فقلتُ اسْتأذِنْ لِعُمَرَ، فدَخلَ ثمَّ خرَجَ إليَّ، فقالَ: قدْ ذكرْتُكَ لهُ، فصَمَتَ، فانطلقتُ حَتَّى انتهَيْتُ إلى المِنبَرِ فجَلسْتُ، فإذا عِندَهُ رَهْطٌ جُلوسٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ، فجَلسْتُ قلِيلًا ثمَّ غلبَنِي مَا أجِدُ، ثمَّ أتيْتُ الغلامَ، فقلتُ: اسْتأذِنْ لِعُمَرَ، فدَخلَ ثمَّ خرَجَ إليَّ، فقالَ: قدْ ذكرْتُكَ لهُ، فصَمَتَ، فوَلَّيْتُ مُدْبرًا، فإذا الغلامُ يَدْعُونِي، فقالَ: ادْخُلْ فقدْ أذِنَ لكَ، فدَخلتُ، فسَلَّمْتُ عَلى رسُول اللهِ ﷺ، فإذا هُوَ مُتَّكِئٌ عَلى رَمْل حَصِيرٍ، قدْ أثَّرَ فِي جَنبهِ، فقلتُ: أطلَقتَ يَا رسُولَ اللهِ نِسَاءَكَ؟ فرَفعَ رَأسَهُ إليَّ، وَقالَ:(لا) ...."الحديث[٣] .

١- تيسير العلام شرح عمدة الأحكام١/٥٩٥.

٢ - السابق ٩/٢١٢

٣ - صحيح البخاري ح ٢٤٦٨ كتاب المظالم والغضب باب: العُرْفةِ وَالعُلِّيَّةِ المُشرَفةِ وَغَيْرِ المُشرَفةِ فِي السُّطوح وَغَيْرِهَا ١/٥٤٠ وفي صحيح مسلم ح ١٤٧٩ كتاب الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن ص٣٩٢

يَقصَّ سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ على سيدنا عبدالله بن عباس حديث الإيلاء، فذكر له أن النَّبيّ ﷺ غضب من أزواجه فاعتزلهنَّ، وشِيع أنه طلقهنَّ فلما علم عمر بذلك أراد أن يستبين الأمر فذهب إلى النَّبيّ ﷺ فوجده معتزلًا، فطلب عمر من الغلام أن يستأذن له رسول الله ﷺ في الدخول، فصمت النَّبيّ ﷺ ولم يرد، وكرر عمر الاستئذان فصمت النَّبيّ ﷺ ولم يرد، ثم أذن له في الدخول.

فلِمَ سكت النَّبيّ ﷺ مرتين ولم يردَّ بشيء؟ وما دلالة هذا السكوت؟

ربما يكون سكوت النَّبيّ ﷺ وعدم إعطاء الإذن لعمر بالدخول ظنًا منه "أنَّ عمر جاء يستعطفه على أزواجه لكون حفصة ابنته منهن ففي رواية سماك: ثم رفعت صوتي فقلت: يا رَبَاح[1] استأذن لي، فإني أظنُّ أن رسول الله ﷺ ظنَّ أني جئت من أجل حفصة والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربنَّ عنقها [2].

وإن كان الأمر كذلك ففي سكوته - ﷺ- دلالة على حيائه وحسن أدبه؛ فلم يرد أن يواجه عمر بما فعلته ابنته رضي الله عنها.

وفيه أيضًا دليل على "أن السكوت قد يكون أبلغ من الكلام وأفضل في بعض الأحايين لأنه عليه الصلاة والسلام لو أمر غلامه بردِّ عمر لم يجز لعمر العود إلى الاستئذان مرة بعد أخرى فلما سكت فهم عمر من ذلك أنه لم يؤثر رده مطلقا" [3].

-ويرى الإمام النووي أنه يُستفاد من هذا السكوت "أن الحاجب إذا علم منع الآذان بسكوت المحجوب لم يأذن"[4] .

-يؤخذ من سكوت النَّبيّ في هذا الموقف أن السكوت لا يختلف عن الكلام في إصدار الحكم به طالما فهم المقصود منه وذلك من خلال السياق والمقام، فكما أن دلالة الكلام ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالسياق، فكذلك السكوت يرتبط أيضًا بالسياق، فلو جاء في سياق غير واضح لا يمكن تأويل دلالته، بل لابد من الوقوف على العلامات والملابسات الملازمة له حتى يتسنى لنا معرفة دلالته "[5].

---

١ - رباح هو اسم الغلام

٢ - يُنظر: فتح الباري ٢٨٩/٩

٣ - المصدر السابق ٢٩٢/٩

٤ - شرح النووي على صحيح مسلم ٩٣/١٠

٥ - شرح ابن بطال ٥٩٦/٦ .

المبحث الرابع
دلالة السكوت على التشويق

يأتي السكوت في بعض الأحيان رغبة من المُخاطِب في إثارة المُخاطب وتشويقه، وفي الغالب يكون هذا السكوت ملازمًا لاستفهام من المُتلقي، أو تقريرٍ من المُلقِي.

فبعد أن يُطرح السؤال ينتظر الجميع الإجابة، فيأتي هنا السكوت للتشويق وزيادة الرغبة في معرفة تلك الإجابة، وفي هذا الصدد يقول الجرجاني(٤٧١هـ):" ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزيَّة أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضَنَّ وأشْغف"[١].

ومما جاء في الصحيحين من سكوت التشويق:

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، قالَ: كُنَّا جُلوسًا عِندَ النَّبيِّ ﷺ، فأنزلتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الجُمُعَةِ: "وَآخرِينَ مِنهُمْ لمَّا يَلحَقوا بهمْ" [الجمعة: ٣] قالَ: قلتُ: مَنْ هُمّ يَا رسُولَ اللهِ ؟ فلَمْ يُرَاجعْهُ حَتَّى سَألَ ثلاثا، وَفِينا سَلمَانُ الفارسِيُّ، وَضَعَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلى سَلمَانَ، ثمَّ قالَ: "لوْ كانَ الإيمَانُ عِندَ الثرَيَّا، لنالهُ رِجَالٌ - أوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلاءِ")[٢].

جاء هذا الحديث تفسيرًا لقوله تعالى:" وَآخرِينَ مِنهُمْ لمَّا يَلحَقوا بهمْ "، فلما نزلت هذه الآية، سأل سيدنا أبو هريرة ﷺ النَّبيَّ ﷺ عن المقصود بـ(الآخرين) في الآية الكريمة، وقد أجمع جلّ المفسرين على أنهم الفرس خصوصًا، أو غير العرب عمومًا، مستدلين بهذا الحديث، وفي ذلك فضلٌ كبير لهم، فإنهم يحاولون الوصول إلى العلم والدين مهما كان بعيدًا، وقصة إسلام سلمان الفارسي ﷺ دليل على ذلك، " و(الثريا) مجموعة من النجوم البعيدة عن الأرض، وبها يضرب المثل في البعد، والكلام كناية عن وصول أهل فارس إلى الدين والعلم والإيمان مهما كلفهم هذا الوصول"[٣]

---

١ - أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني: ص١٣٩ .

٢ - صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن، باب :سورة الجمعة، ٥١١/٢، ح ٤٨٩٧ ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فارس ص٦٨٠، ح ٢٥٤٦.

٣ - يُنظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم، ٦٠٦/٩.

" وقد ظهر ذلك للعيان فإنهم ظهر فيهم الدين وكثر فيهم العلماء، فكان وجودهم كذلك دليلًا من أدلة صدق النَّبيِّ ﷺ"[1].

لذا ألحقهم الله تعالى بالأميين في قوله تعالى:" هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنهُمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ "[2].

ولكن ما سبب سكوت النَّبيّ ﷺ عن إجابة سيدنا أبي هريرة ﷺ حتى أعاد عليه السؤال ثلاث مرات ؟

يرى الباحث أنا دلالة السكوت هنا هي التشويق، فالصحابة لمَّا سمعوا قوله تعالى:" وَآخرِينَ مِنهُمْ لمَّا يَلحَقُوا بهِمْ" أصبحوا في شوقٍ شديد لمعرفة هؤلاء الذين سيلحقون بالأميين، فالأميون هم العرب الذين اتبعوا رسول الله ﷺ ونصروه، فمَن يكون هؤلاء الآخرون، وقد أراد النَّبيّ ﷺ أن يزيدهم شوقا فسكت عن الإجابة، حتى إذا تكلم لفت انتباه السامعين إلى الكلام الذي يُلقيه عليهم، ورغّبهم فيه، وتلقوه بشوق ورغبة شديدين .

فالسكوت هنا ثم الإجابة بعد هذا السكوت المتكرر هو بمثابة إيضاح بعد إبهام، فالمقصود من الآية مُبهم لا يعلمه من البشر إلا النَّبيّ ﷺ، وقد زاده إبهامًا بسكوته ﷺ، مما جعل لمعرفته وقع وتأثير لم يكونا ليحدثا بدون هذا السكوت، يقول الخطيب القزويني:".. فإنّ المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوّقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجّه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا ألقي كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان الشعور به أتمّ، فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به ألم، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة، وبسبب حرمانها من الباقي ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم "[3] .

١ - يُنظر: المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم، ٥٠٦/٦

٢ - سورة الجمعة، آية ٢ .

٣ - الإيضاح في علوم البلاغة ١٩٧/٣

ومن بديع ما جاء في هذا الحديث أن إجابة النَّبيّ ﷺ لم تكن باللفظ فقط، إنما تبعته حركة، يقول أبو هريرة ﷺ:" فَوَضَعَ رسُولَ الله ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قالَ: "لَوْ كانَ الإيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا، لنالَهُ رِجَالٌ - أوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلاءِ").

فسكوت النَّبيّ ﷺ ثم وضْع يده على سيدنا سلمان ﷺ ثم الإشارة بقوله: هؤلاء وعدم التصريح بقوله: الفرس كل ذلك أدعى إلى جذب انتباه السامعين والتأثير فيهم.

فكان للسكوت في هذا الحديث دورٌ كبير في جذب انتباه السامعين وتشوقيهم وهو جانب مهم من جوانب البلاغة .

ومن ذلك أيضًا: ما رواه البخاريَّ ومسلم عَنْ أبِي بَكْرَة ﷺ ، قالَ: خطبَنا النَّبيّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قالَ:" أتدْرُونَ أيُّ يَوْم هَذا؟ " قلنا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، فسَكتَ حَتَّى ظنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قالَ:" أليْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ " قلنا: بَلَى، قالَ:" أيُّ شَهْرٍ هَذا؟ "، قلنا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، فسَكتَ حَتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فقالَ:" أليْسَ ذو الحَجَّةِ؟ " ، قلنا: بَلَى، قالَ:" أيُّ بَلَدٍ هَذا؟ " قلنا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، فسَكتَ حَتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قالَ:" أليْسَتْ بالبَلْدَةِ الحَرَام؟ " قلنا: بَلَى، قالَ:" فإنَّ دِمَاءَكُمْ وَأمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذا، فِي شَهْرِكُمْ هَذا، فِي بَلَدِكُمْ هَذا، إلَى يَوْم تلقَوْنَ رَبَّكُمْ، ألا هَلْ بَلَّغْتُ؟ " قالوا: نعَمْ، قالَ:" اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فليُبَلِّغ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فرُبَّ مُبَلَّغ أوْعَى مِنْ سَامِع، فلا ترْجعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْربُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ".(١)

ألقى النَّبيّ ﷺ هذا الحديث في حجة الوداع، وهذا ما دفعه إلى أن يوضِّح لأصحابه ولأمته جميعها- فقد أمر الشاهد أن يبلغ الغائب- بعض الأمور الهامة التي كانوا يستبيحون حرمتها في الجاهلية، وقد جاء الإسلام فحرَّمها، ولذلك نجد النَّبيّ ﷺ يُشدِّد في تحريمها ويؤكد على ذلك ببعض الوسائل منها:

-الاستفهام الذي جاء في بداية حديثه ﷺ بقوله : "أتدرون؟"، وهو بذلك يثير انتباههم ويحرك عواطفهم، فينتظرون الإجابة بعاطفة حارة ووجدان حيٍّ متيقظ وعقل متفتح مستوعب .

---

١ - صحيح البخاري ح ١٧٤١ كتاب الحج ، باب الخطبة أيام منة ٣٨٠/١ وح ٤٤٠٦ كتاب المغازي باب حجة الوداع ٣٦٨/٢ وفي صحيح مسلم ح ١٦٧٩ كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ص٤٦٠ ، واللفظ للبخاري.

- أن هذا الاستفهام جاء عن أمر بديهيٍّ؛ فالصحابة يعلمون أنهم في يوم النحر، وأنهم في شهر ذي الحجة، وأنهم في مكة المكرمة، ولذلك فطنوا إلى أنه ﷺ لا يُريد الإجابة المباشرة، فقالوا:" الله ورسوله أعلم"، و" فوَّضوا علم الشهر والبلد واليوم إلى الله عزَّ وجلّ وإلى رسوله ﷺ ، مع أنهم يعلمونها حقَّ العلم، لأنهم فهموا أنه ﷺ لا يخفي عليه أنهم يعرفون الجواب، ففهموا أنه ليس المراد الإخبار بالأسماء، وأن المراد من السؤال شيء آخر، ففوضوا العلم به"[١].

-سكوت النَّبيّ ﷺ بعد هذا السؤال حتى ظنَّ الصحابة أنه سيغير اسم اليوم والشهر والبلد .

-التقرير بقوله:" أَلَيْسَ" ليثبت عندهم حرمتها ويؤكدها ويجعلهم يُقرُّون بذلك.

-وبعد أن أكد لديهم حرمة هذه الأشياء أوضح ﷺ لهم ما يريده عن طريق التشبيه فشبَّه حرمة الدماء والأموال والأعراض بحرمة اليوم والشهر والبلد .

وربما يسأل سائل فيقول: شبه النَّبيّ الدماء والأموال والأعراض – وهي لها ما لها من الحرمة - في الحرمة باليوم والشهر والبلد، مع أن الأصل في التشبيه أن يكون المشبه به أقوى وأهم عند المتلقي من المشبه فما السر في ذلك ؟!

يقول الكرماني(٧٨٦ هـ)" وإنما شبهها في الحرمة بهذه الأشياء لأنهم كانوا لا يرون هتكها بحال "[٢] .

ويوضح بدر الدين العيني(٨٥٥هـ) سبب هذا التشبيه فيقول:" لأنهم كانوا لا يرون استباحة هذه الأشياء.. وكان تحريمها ثابتًا في نفوسهم مقررًا عندهم بخلاف الدماء والأموال والأعراض، فإنهم في الجاهلية كانوا يستبيحونها"[٣].

ويبدو لمن يدقق النظر في هذا الحديث الماتع أن النَّبيّ ﷺ استخدم فيه كثيرًا من الصور والأساليب: فاستخدم التشبيه والاستفهام والتقرير، ونوَّع بين الخبر والإنشاء تأكيدًا على حرمة الدماء والأموال والأعراض .

ولكن السؤال الذي يعنينا هنا: ما البلاغة في سكوت النَّبيّ ﷺ بعد كل سؤال ؟

---

١ -(فتح المنعم شرح صحيح مسلم أ.د موسى شاهين لاشين ٥٤٥/٦).

٢ - الكواكب الدراري ٢٣٠/٨

٣ - عمدة القاري ٣٨/٢

يرى الباحث أن السكوت بعد طرح السؤال يكون في الغالب انتظارًا للإجابة، وإعطاء مهلة للمسئول كي يفكر فيها، ولكن حين يكون السؤال بديهيًّا معروفة إجابته فإن ذلك يكون أبلغ وأبعث على التفكير، فيصول السامع بفكره ويجول ويقلب بين معلوماته، ويسأل نفسه هل هي الإجابة التي نعلمها؟ وإن كانت هي فما سبب السؤال عنها وهي معروفة؟ وإن لم تكن هي التي نعلمها، فما هي إذن ؟ لابد أن الأمر أكبر من هذا، فهم يعرفون أنَّ كلام النَّبيّ ﷺ تشريع لهم، وأنهم يفوضونه في كل أمورهم، كل ذلك يجعل السكوت هنا هو عين البلاغة، وخاصة أنه قد جاء بعده تقرير، فسكوت بين استفهام عن معلوم وبين تقرير للسامعين لابد وأن يثير الذهن، ويُشعر بخطورة الموضوع ويثبت الفكرة.

بالإضافة إلى ذلك فإن من بلاغة السكوت هنا أنه أفاد:

- التنبيه على عظمة المسئول عنه وتفخيمه، يقول الإمام النووي:" هذا السؤال والسكوت والتفسير أراد به التفخيم والتقرير والتنبيه على عظم مرتبة هذا الشهر والبلد واليوم"[١].

- المبالغة في تحريم الدماء والأموال والأعراض بتشبيهها باليوم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام. يقول القرطبيَّ(٦٥٦ه) :" وقوله" أيَّ شهر هذا؟ وأيَّ بلد هذا؟ وأيَّ يوم هذا؟" وسكوته بعد كلَ واحد منها كان ذلك منه استحضارًا لفهومهم، وتنبيهًا لغفلتهم، وتنويهًا بما يذكره لهم؛ حتى يُقبلوا عليه بكليتهم، ويستشعروا عظمة حرمة ما عنه يخبرهم، ولذلك قال بعد هذا:" فإنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذا، فِي شَهْرِكُمْ هَذا، فِي بَلَدِكُمْ هَذا"، وهذا منه ﷺ مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء، وإغياء في التنفير عن الوقوع فيها؛ لأنهم كانوا قد اعتادوا فعلها، واعتقدوا حليَّتها"[٢] .

-

- ومن الجماليات التي تُستنبط من هذا السكوت أنه دليل على فضل الصحابة وتقديرهم لمعلمهم، يقول ابن حجر- رحمه الله:" سكوت النَّبيّ ﷺ وصبر الصحابة وعدم تعجلهم الإجابة دليل على فضلهم، وذلك من حسن أدبهم لأنهم علموا

١ - النووي شرح صحيح مسلم١٦٩/١١ و ينظر تعليق محمد فؤاد عبدالباقي على صحيح مسلم ١٣٠٥/٢.

٢ - المفهم لما أشكل من صحيح مسلم، للقرطبيّ ٤٧/٥

أنه لا يخفي عليه ما يعرفونه من الجواب وأنه ليس مراده مطلق الإخبار بما يعرفونه"[1].

أترى أن هناك لفظا من الألفاظ يستطيع أن يؤدي بلاغة هذا السكوت

الخاتمة والنتائج

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان . وبعد

فإنني بفضل من الله ونعمة قد أتممت هذا البحث الذي تحدثت فيه عن بلاغة السكوت في الحديث النبويِّ من خلال نماذج من الأحاديث النبوية الواردة في الصحيحين ، وأرجو من الله تعالى أن يكون البحث قد حقق بعضًا مما يُرجى منه، وقد توصلت من خلاله إلى بعض النتائج منها:

-على الرغم من كون الصمت توقفًا عن الكلام، إلا أنه ليس توقفًا عن الاتصال، ففي الصمت الكثير من المعاني التي يمكن أن تعد أساسًا في عملية التواصل والتفاهم بين الناس.

-من خلال الصمت يمكن التعبير عن الرضا والرفض والإشفاق والتشويق وغيرها.

-للسياق دور كبير في تحديد دلالة السكوت، فلا يمكن بحال تحديد دلالته خارج السياق.

-لم يكن سكوت النبي ﷺ مجردًا عن العملية التعليمية التبليغية، بل كان له دورٌ كبير في التبليغ النبويّ.

-كان السكوت في الحديث النبوي الشريف بديلًا عن اللغة المنطوقة في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كان مساعدًا للغة المنطوقة في إيصال المعنى بكل دلالاته إلى المتلقي، فتتآزر الدلالتان للتعبير عن المقصود بأتم وجه.

-أبرز البحث أثر التعبير بغير الكلام في الكشف عن الدلالات والمعاني التي يرمي إليها المخاطب.

---

١ - فتح الباري ١٥٩/١

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الإحكام في أصول الأحكام لأبي الحسن سيد الدين الثعلبي الآمدي (٦٣١هـ)، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- لبنان .
- الأدب النبويّ ، محمد عبد العزيز بن علي الشاذلي الخوْلي (١٣٤٩هـ)، دار المعرفة – بيروت، ط٤، ١٤٢٣ هـ
- أسرار البلاغة: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة .
- الإيضاح في علوم البلاغة: أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط٣ .
- البيان والتبيين: عمرو بن بحر أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ
- التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، علي علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث ، ط١: ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م .
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم: زين الدين عبد الرحمن الحنبلي (٧٩٥هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م-
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري): أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصفا، ط١، ٢٠٠٣م
- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، لأبي الفرج المعافى الجريرى النهرواني(٣٩٠ه)، المحقق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م
- دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- دراسات لسانية في الحديث النبويّ: د. أحمد عارف حجازي، دار فرحة للنشر والتوزيع .

- الدلالات التربوية لأسلوب السؤال والجواب في السنة النبوية: رسالة ماجستير إعداد الطالب: خليل محمد دخان ، الجامعة الإسلامية- غزة ١٤٣١ه-٢٠١٠م.
- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث (دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق) د/ عبد الفتاح عبد العليم البركاوي.
- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: محمد علي إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (١٠٥٧هـ)، دار المعرفة، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط٤، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م .
- الرسائل الأدبية عمرو بن بحر أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ.
- السكوت ودلالته على الأحكام الشرعية ، رمضان علي السيد الشرنباصي ، دار الفكر العربي، القاهره، ١٩٨٤ م .
- السياق وتوجيه دلالة النص، د/ عيد بلبع، منتدى سور الأزبكية، ط١٤٢٩،١ه-٢٠٠٨م
- شرح صحيح البخاري لابن بطال: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف (٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية- الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م
- علم المعاني في المورث البلاغي تأصيل وتقييم: د.حسن طبل مكتبة الإيمان، الطبعة الثانية، ١٤٢٥ه، ٢٠٠٤م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (٤٦٣ هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين العينيّ (٨٥٥هـ): دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.
- في ظلال القرآن سيد قطب : سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط١٧، ١٤١٢ه .

- كشف المشكل من حديث الصحيحين: جمال الدين أبو الفرج بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ)، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن – الرياض.
- لسان العرب محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، ط٣ - ١٤١٤هـ .
- المخصص : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (٤٥٨هـ)، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (١٠١٤هـ)، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول ﷺ (صحيح مسلم): أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الصفا ط١ ٢٠١٤.
- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

المجلات

- بحث بعنوان "الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية" د.عودة عبد الله مجلة المسلم المعاصر، مصر، العدد ١١٢، سنة ٢٠٠٤ م .
- بحث بعنوان (بلاغة الصمت دراسة تداولية) د: وليد سعيد شيمي مجلة كلية دار العلوم جامعة الفيوم ع :٣٦ يونيو ٢٠١٥ م .
- بحث بعنوان: بلاغة الصمت في الخطاب الصوفي - قراءة في مذاق البدايات: د/ أحمد بوزيان جامعة عبد الرحمن بن خلدون تيارت الجزائر، مجلة الأثر، العدد الثامن عشر / جوان٢٠١٣ م.